

الأعمال الموسوعية العربية

تطور الأعمال الموسوعية العربية القديمة:

لقد كان ظهور الإسلام بداية لحضارة إسلامية عظيمة في جميع مجالات المعرفة بوجه عام، وفي ميادين الكتابة والتأليف بوجه خاص. وكان العصر العباسي هو العصر الذي ازدهرت ونضجت فيه حركة العلم والثقافة، وبدء فيه تدوين العلوم سواء الإسلامية منها أو المترجمة من الأمم والحضارات الأخرى، وبرغم وجود الاتجاه نحو التخصص العلمي لدى العلماء وطلاب المعرفة إلا أنه كان هناك في الوقت نفسه اهتمام بالثقافة والأخذ من كل علم بطرف.

وانطلاقاً من الحاجة إلى التتقيف العام ظهرت الكتب الجامعة التي تحفل بكافة العلوم والفنون، حيث كان العرب في ذلك الوقت يميلون إلى أن يكونوا موسوعيين في تأليفهم، وكان كل عالم يجتهد في أن يحيط بكل ما يستطيع الإحاطة به من هذه العلوم الموجودة في عصره، فإذا تصدى عالم لتفسير القرآن الكريم مثلاً فإنه كان يبين المعنى اللغوي للألفاظ ويستعين في ذلك بالأحاديث النبوية الشريفة، والشعر العربي، وأحياناً يستعين بالمواقف والأخبار والتاريخ والسير.

ولهذا نجد أن تأليفهم التي ظهرت في تلك الفترة كانت إما تأليف موسوعية تحتوي على جميع المعلومات أو كتب ضخمة تتناول موضوعاً واحداً من جميع جوانبه، وأيضاً الموضوعات التي ترتبط به ولو كانت بعيدة الصلة.

يأتي على رأس هذه التآليف الموسوعية كتابات: ابن عبد ربه الأندلسي، والجاحظ، وابن قتيبة، والفارابي، والأصفهاني وغيرهم، كما هو موضح فيما يلي.

أما ابن عبد ربه الأندلسي، أبو عمرو أحمد بن محمد المتوفى سنة ٢٢٨هـ فقد أحصى علوماً مختلفة في كتابه "العقد الفريد" الذي تصوره عقداً مؤلفاً من خمسة وعشرين جوهرة، اثنتا عشر منها من جانب واثنتا عشرة أخرى من جانب. ولكن ابن عبد ربه لم يسم إلا اثنتي عشر جوهرة كالتالي: لؤلؤة، فريدة، زبرجدة، جمانة، مرجانة، ياقوته، جوهرة، زمردة، ورده، يتيمة، عسجد، مجنية

اختصت كل لؤلؤة من لؤلؤات ابن عبد ربه بموضوع من الموضوعات، فاللؤلؤة الأولى عالجت موضوع السلطان، والثانية الفكاهات والملح، والفريدة الأولى في الحروب، والفريدة الثانية في الطعام والشراب، وهكذا وفي كل باب من أبواب الكتاب يختلط التاريخ بالأدب وباللغة والنحو والعروض والتقاليد الاجتماعية وغيرها.

وأما الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر المتوفى سنة ٢٥٥هـ) لم يوجه نشاطه العلمي نحو علم معين، وإنما يتناول في كتبه شتى الموضوعات، فقد كتب في الموضوعات التاريخية والاجتماعية والفلسفية، ومن أشهر كتبه التي وصلت إلينا كتاب "الحيوان" وكتاب البيان والتبيين وكتاب "البخلاء".

ولو أخذت المعلومات من هذه الكتب وتبنت ترتيباً هجائياً مثلاً، لأصبحت دائرة معارف لأكثر العلوم والآداب التي كانت معروفة في عصره بل إن كتاب "الحيوان" وحده موسوعة تعالج الكثير من ألوان الأدب وعلم الحيوان وعلم الاجتماع وغيرها.

وأما ابن قتيبة (أبومحمد عبد الله بن مسلم المتوفى سنة ٢٧٦هـ) فقد تناول جميع معارف عصره في مؤلفاته العديدة. ويعتبر كتابه "عيون الأخبار" أنموذجاً للموسوعات الأدبية في عصره، تناول فيه ألواناً شتى من المعارف مما وقف عليه من كلام القدماء، وتجاربهم وسيرهم.

وقد جعل ابن قتيبة كتابه "عيون الأخبار" في عشرة أجزاء، على النحو التالي: كتاب السلطان، كتاب الحرب، كتاب السؤدد، كتاب الطبائع، كتاب العلم، كتاب الزهد، كتاب الإخوان، كتاب الحوائج، كتاب الطعام، كتاب النساء.

ولابن قتيبة أيضاً كتاب هام وهو كتاب "المعارف" وهو عبارة عن موسوعة عامة تتصف بالنظام والتركيز، وقد جمع ابن قتيبة في هذه الموسوعة "كتاب المعارف" كل ما يهم الناس أن يعرفوه عن أسلافهم من أخبار، بدأ فيها بمبتدأ الخلق، وبعض الأنبياء، وأنساب العرب، ثم أخبار الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم الصحابة والتابعين، والمساجد المشهورة كالكعبة والمسجد النبوي الشريف وبيت المقدس، ومسجد البصرة، ومسجد الكوفة، وتناول أديان العرب في الجاهلية وصناعاتهم، وأهل العاهات، والطوال المفرطي في الطول والقصار المفرطي في القصر، والطواعين وأوقاتها، وأيام العرب المشهورة، وملوك الحيرة وملوك فارس واليمن وغيرها من معارف وأخبار.

وأما الفارابي (أبونصر محمد المتوفى سنة ٣٣٩هـ) فيعتبر أول من اهتم بترتيب المعارف على نمط نظامي، أي بشكل نظم، موافق للارتباط المنطقي بين المواضيع، يظهر ذلك في كتابه "إحصاء العلوم" الذي يعتبر أول موسوعة عربية تضم أشتات الفنون، وترتب العلوم وتربطها مع بعضها.

وقد جعل الفارابي كتابه "إحصاء العلوم" في خمسة فصول، كالتالي:

الفصل الأول: في علم اللسان وفروعه، والنحو، واللغة والصرف والشعر والكتابة والقراءة.

الفصل الثاني: في علم المنطق ويبين فيه الفارابي القضايا المختلفة التي سيتعلمها المنطق كالبرهان والجدلية والسفسطائية والخطابية والشعرية.

الفصل الثالث: في علم التعليم أي الرياضيات وينقسم إلى سبعة أجزاء هي: علم العدد وعلم الهندسة وعلم المناظر (البصريات) علم النجوم التعليمي (الفلك) علم الموسيقى وعلم الانتقال وعلم الحيل (الميكانيكا التطبيقية).

الفصل الرابع: في العلم الإلهي (ما وراء الطبيعة) والعلم الطبيعي (الطبيعة)، وينقسم العلم الإلهي إلى ثلاثة أقسام: جزء يبحث عن الموجودات، جزء يبحث عن مبادئ البراهين في العلوم النظرية الجزئية، وجزء ثالث يبحث عن الموجودات التي ليست بأجسام ولا في أجسام.

الفصل الخامس: في العالم المدني (علم الأخلاق السياسية) وعلم الفقه وعلم الكلام.

ونظرا للقيمة العلمية لكتاب " إحصاء العلوم " للفارابي، فقد ذاع صيته في العالم، وأصبح نواة لغيره من الموسوعات العربية.

وأما الأصفهاني (أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد بن أحمد القرشي) (المتوفى سنة ٣٥٦هـ) فقد جمع الأغاني التي كانت شائعة في عهده، مع ذكر مؤلفيها وأنسابهم وذلك في كتابه المشهور " الأغاني " الذي كان يشمل أيضاً الكثير من الأخبار والأنساب، وذكر أيام العرب، وأخبار ملوكهم في الجاهلية وأخبار المغازي النبوية والخلفاء المسلمين.

وبالرغم من أن الأصفهاني لم يلتزم في كتابه هذا نظاما معيناً، فإنه يعتبر أهم مرجع للتاريخ الأدبي إلى القرن الرابع الهجري، كما يعتبر مرجعاً له قيمته في دراسة الحضارة العربية بوجه عام، وقد اجتمع الكثير من النقاد على أنه يعد من أهم المراجع التي تجمع بين دفتيها الشعر العربي وما يتصل به من رواية وأخبار منذ الجاهلية وحتى عصر المؤلف.

وهكذا نجد أن المؤلفين العرب يتجهون نحو تجميع أشتات مختلفة من المعرفة ولعلمهم كانوا يتجهون هذا الاتجاه لاعتقادهم أن العالم الذي يود أن يحتفظ بقدرة وشهرته لابد وأن يكون مستعداً للإجابة على أي سؤال.

إلا أن النصف الثاني من القرن الرابع الهجري يشهد تغيراً ملحوظاً في التأليف الموسوعي ألا وهو ظهور التأليف الجماعي للأعمال الموسوعية العربية، تمثل ذلك في رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا، وهم جماعة من الشيعة اتخذت من البصرة مقراً لها، أحاط بهذه الجماعة الكثير من الغموض حول أسمائهم وشخصياتهم أطلقوا على أنفسهم "إخوان الصفا".

وتتكون الموسوعة التي نسبت إليهم من اثنتين وخمسين رسالة في أربعة أقسام عامة، وهي: القسم الرياضي والقسم الطبيعي وقسم الدراسات النفسية والعقلية وقسم الآراء والديانات.

توجه الكتاب بشكل رئيسي إلى الاهتمام بالعلوم الرياضية والطبيعية والفلسفية والشرائع والديانات.

ومنذ نصف القرن السابع الهجري أخذ التفكير الموسوعي عند العرب ينمو ويتسع، وخاصة في مصر التي هرع إليها العلماء من مختلف الأقطار العربية خوفاً من الهجوم التنكري، فأصبحت مصر مركز إشعاع للثقافة العربية

الإسلامية، وشهدت نهضة علمية فكرية، أثمرت عددا من الموسوعات الضخمة، مثل:

- ١- نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري.
 - ٢- صبح الأعشى في صناعة الإنشا للقلقشندي.
 - ٣- عقد الجمان في تاريخ الزمان لبدر الدين العيني.
 - ٤- مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم لطاشكبري زاده.
- وتتميز هذه الموسوعات عن سابقتها بالتنظيم الدقيق، والتقسيم المنطقي للموضوعات كما أنها بنيت على التقييد بموضوع الموسوعة قدر الإمكان.

الموسوعة الأولى: نهاية الأرب في فنون الأدب للتنويري

وقد ألفها شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري المتوفى سنة ٧٣٣ هجرية وهي موسوعة جامع علم مختلفة، وقد جعلها النويري في خمسة فنون، يتناول الفن الأول أسماء والآثار العلوية، ويتناول الفن الثاني الإنسان وما يتعلق به، والفن الثالث يتناول الحيوان الصامت، والفن الرابع يتناول النبات وأما الفن الخامس والأخير فهو يتناول التاريخ، وكل من هذه الفنون الخمسة ينقسم إلى خمسة أقسام، فعلي سبيل المثال يتناول الفن الأول خمسة أقسام هي:

- ١- السماء وما فيها.
- ٢- الآثار العلوية، مثل السحاب والبرد والصواعق والرعد والبرق والهواء.
- ٣- الأيام والشهور والأعوام والفصول والمواسم والأعياد.

- ٤- الأرض وطولها ومساحتها، والجبال والبحار والأنهار.
- ٥- طبائع البلاد وأخلاق سكانها والمباني القديمة والقصور والمنازل وكل قسم من هذه الأقسام الخمسة ينقسم بدوره إلى خمسة أبواب، فعلي سبيل المثال يتناول القسم الرابع خمسة أبواب، هي:
- ١- أخبار ذي القرنين.
- ٢- أخبار ملوك مصر والهند والصين.
- ٣- أخبار ملوك الأمم والأعاجم كالفرس واليونان والسريان والكلدانيين وغيرهم.
- ٤- أخبار ملوك العرب وما يتصل به من خبر سيل العرم.
- ٥- أخبار العرب ووقائعها في الجاهلية.

الموسوعة الثانية: صبح الأعشى في صناعة الإنشا للقلقشندي

وهي من تأليف شهاب أبي العباسي أحمد بن علي القلقشندي المتوفى سنة ٨١٢هـ، وهي كتاب ضخمة وضعه مؤلفه ليعرف القارئ بحقيقة ديوان الإنشا وما يجب أن يلم به الكاتب من معلومات تساعده في صناعته، وقد ضمنه مؤلفه كل ما استطاع جمعه من المعارف ورتبه على مقدمة وعشرة مقالات وخاتمة.

المقالة الأولى: في بيان ما يحتاج إليه الكاتب من أمور، مثل معرفة الأزمان والأيام والشهور والسنوات والأعياد وبعض ألوان الثقافة كالقرآن والحديث والشعر والحكم والأمثال وكلام الخطباء وغيرها.

المقالة الثانية: وهي عن المسالك والممالك وجعلها في أبواب ثلاثة الأول وصف الأرض والثاني في طبقات الخلفاء والثالث في الديار والمسالك والممالك.

المقالة الثالثة: في ذكر أمور تشترك فيها أنواع المكاتبات والولايات وغيرها مثل الأسماء والكنى والألقاب ومقادير الورق وأنواع الأقلام وطرق الكتابة.

المقالة الرابعة: في إعداد المكاتبات: تاريخها وفنها ومقدماتها وأصولها وأساليبها قديماً وحديثاً والمصطلحات المستخدمة فيها.

المقالة الخامسة: في الولايات والمبايعات والعهود وبيان طبقاتها وهي أطول المقالات إذ أنها تشغل أكثر من ١٦٠ صفحة.

المقالة السادسة: فيما يكتب في الوصايا الدينية، والمساحات والإطلاقات السلطانية، وما يكتب فيها، وتحويل السنين والتوقيت بين السنين القمرية والشمسية.

المقالة السابعة: في الإقطاعات والقطائع وأصل وضعها في الشرع وما يكتب فيها وقد أورد فيها أيضاً الكثير من النماذج.

المقالة الثامنة: في الأيمان، وما يقع به القسم واليمين الشرعية واليمين الغموس وتحرير الأيمان.

المقالة التاسعة: في عقود الأمانات والصلح وعقود أهل الذمة.

المقالة العاشرة: في فنون الكتابة التي يتداولها الكتاب والأدباء.

أما الخاتمة: فقد تناول فيها التعريف بحقيقة ديوان الإنشاء وأصل وضعه في الإسلام وما حدث له بعد ذلك من تفرق في المماليك الإسلامية كما تناول فيها

أيضاً صناعة كتابة الإنشاء، وبين فضلها على سائر أنواع الكتابة وصفات الكتاب والأدباء وما يحتاج إليه الكاتب.

وهكذا نجد أن كتاب صبح الأعشى يعتبر من أكمل الموسوعات التاريخية الاجتماعية للأمة العربية منذ بدء التدوين وحتى القرن التاسع الهجري، وهو أوفر حظاً من غيره من الموسوعات العربية، إذا أنه هو الموسوعة العربية الوحيدة التي اكتمل نشرها وكان الفضل في ذلك لدار الكتب المصرية.

الموسوعة الثالثة: عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان لبدر الدين العيني

وهي من تأليف محمود بن أحمد بن حسين المتوفى سنة ٨٥٥ هجرية تناول فيه مؤلفه تاريخ العالم منذ بدء الخليقة حتى عصره (منتصف القرن التاسع الهجري) وقد ضمنه العيني معلومات عن الدنيا بأكملها، تاريخها وجغرافيتها، ومناخها وسكانها وحيواناتها وطيورها ونباتها وثقافتها، كما تحدث عن السماء والملائكة.

قدم المؤلف لكتابه عقد الجمان بمقدمة تحدث فيها عن أصل التاريخ ومعناه وعن سبب وضعه ثم تحدث عن الخليقة وعن الخالق عز وجل كما تحدث عن الأنبياء وما حدث في أيامهم وعن رسولنا الكريم محمد صلى الله عليه وسلم والخلفاء من بعده.

ويرتب بدر الدين العيني كتابه عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان بالنظام الحولي للفترة ما بين ٨٠٥ : ٨٥٠ للهجرة، فيقدم حوادث كل سنة، ثم يتبعها بوفيات أعيانها.

والمعلومات التي وردت بالكتاب تعكس ثقافة عصره، وهي ثقافة يغلب عليها الطابع الديني وأن كان كثيراً من هذه المعلومات وخصوصاً عن الفلك يغلب عليها التفسير الخرافي، فالبرق عنده " هو ضرب الملك السحب بمخاريق من حديد.

والكتاب يعد مرجعاً له قيمة في دراسة الجغرافيا الطبيعية والبشرية، فهو يورد الشئ الكثير عن البلد الذي يتحدث عنه يتكلم عن أعمال السكان ونشاطهم وعاداتهم وتقاليدهم ودياناتهم ومعتقداتهم وقد أفرد العيني قسماً خاصاً للجزر والقلاع والتلال وما في الأرض من بحار وأنهار وبحيرات وخلجان. كما افرد قسماً آخر للموجودات من المخلوقات والكائنات الحية، وتحدث فيه عن الإنسان والحيوان ولطيور ثم اتبعه بقسم آخر للحديث عن النباتات التي جاءت في عصره وبد الحديث عن الأرض وما عليها ثم انتقل إلى السماء ليتحدث عن خلق الملائكة، وهو في ذلك كله يدعم كلامه بآيات من القرآن الكريم وبأحاديث النبي محمد صلى الله عليه وسلم.

وبهذا فإن الكتاب يعد موسوعة في كل العلوم وليس في التاريخ فقط.

الموسوعة الرابعة: مفتاح السعادة لطاشكبري زاده

وعنوانها هو مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم وهي من تأليف أحمد بن مصطفى الشهير بطاشكبري زاده (ت ٩٦٨هـ)، وهي عبارة عن موسوعة في تاريخ العلوم العربية، أفاض فيها مؤلفها في الكلام عن العلوم وموضوعاتها وأعلامها المبرزين.

والموسوعة مرتبه ترتيباً مصنفاً أي وفقاً لنظام تصنيف المعرفة السائد في عصره.

وقد ضمن طاشكبري زاده كتابه معلومات بليوجرافية تبين أهم المؤلفات في كل علم من العلوم التي ذكرها مع ذكر شيء عن مؤلفيها.

وكان الغرض من وضع طاشكبري زاده لكتابه أن يكون وسيلة لتحقيق سعادة المرء عن طريق العلم والعمل ولهذا أورد سائر العلوم المعروفة في عصره، وبين طريقة تحصيلها من أجل تحقيق السعادة.

والكتاب يبدأ بمقدمات أربع في بيان فضيلة العلم والتعليم وفي شرائط العلم وفي وظائف المعلم وبعد هذه المقدمات يقسم المؤلف الكتاب إلى طرفين ويقسم كل طرف إلى دوحات وكل دوحه إلى عدد من الشعب وكل شعبة إلى عدد من العلوم.

من خلال هذا نستطيع أن نقول إن هذا الكتاب يعد موسوعة في موضوعات العلوم فهو يشمل على المعرفة البشرية التي كانت سائدة في عصره ويعالجها بطريقة تختلف عن سابقه؛ فهو يحصر العلوم ويذكر تفاصيل كل علم ويذكر أهم المؤلفات فيه، يبدأها بالمؤلفات الأصلية ثم يتبعها بالمختصرات والشروح، والكتاب بهذا أيضاً له قيمة بليوجرافية كبرى.

ملاحظات حول التأليف الموسوعي العربي:

هناك العديد من الملاحظات حول التأليف الموسوعي عند العرب،

منها:

١- أن تأليف هذه الموسوعات قام به مؤلفون لأفراد، من أمثال الفارابي والجاحظ وابن قتيبة والأصفهاني والنويري والقلقشندي وبدر الدين العيني وطاشكبري زاده وغيرهم. وهؤلاء وإن كانت لديهم الخبرات والثقافات التي كانت تعينهم على التأليف الموسوعي، إلا أن جهدهم كان قاصراً، فلم تشمل موسوعاتهم إلا ما كانوا يعرفونه هم فقط.

٢- أن بعض المعلومات التي وردت في هذه الموسوعات فيها اختلاف فيما بينها؛ وذلك لأن مؤلف كل موسوعة كان لديه معارفه واهتماماته ومعتقداته التي تختلف عن غيره فكانت نظرتهم للأمور تختلف عن غيره وتفسيره للظواهر يختلف أيضاً عن غيره، ولذا جاءت المعلومات في تلك الموسوعات مختلفة وربما في بعض الأحيان متناقضة.

١- الاستقراء والاستفاضة في تقديم المادة العلمية فالمؤلف لا يكفي بذكر المعلومات الرئيسية الخاصة بموضوع كتابه وإنما يتطرق في سياق الكلام إلى مسائل النحو والصرف والفقه والفلسفة وغيرها

٢- افتقار الموسوعات القديمة إلى عنصر التوازن في تغطية الموضوعات ولعل ذلك يرجع إلى عدم قدرة المؤلف الإحاطة بمختلف العلوم بنفس العمق فالعلوم المتعمق فيها يذكرها تفصيلاً بينما العلوم التي لا يحيط بها يذكرها مختصره.

٣- أسلوب المعالجة في الكثير من الموسوعات القديمة أسلوب متعمق مما يجعل الفائدة قاصرة على الخاصة من القراء المتمكنين. وهناك الكثير من الملاحظات الأخرى التي يمكنك استنباطها.